

المعجم و مبدأ الإحاطة باللغة

الدكتور : بلقا سم مالكية

قسم الأدب العربي

جامعة ورقلة (الجزائر)

ملخص:

Résume :

Ce Travail, dont le but principal est de répondre à la question de la possibilité de l'appropriation de la langue, vise essentiellement à mettre en évidence les fondement et les soubassement méthodologiques qui ont présidé à la conception des premiers dictionnaire d'arabe. et de la s'est constitué une ensemble de discours se résument respectivement par khalil ibn Ahmed et ibn fares . Nous nous devons de signaler une position médiane, celle de l'imam chaafii, que réfute l'appropriation absolue par l'individu et affirme celle de la collectivité. Reste, en fin, à considérer un discours d'objectivité qui prône, en lieu et place de la problématique de l'appropriation, celle de la déperdition.

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن الخلفية الفكرية التي تحكممت في عملية صناعة المعجم العربي القديم وذلك من خلال طرح سؤال مهم هو : هل يمكن الإحاطة بكل مفردات اللغة ؟ وعن هذا السؤال تشكلت مجموعة من الخطابات يمكن حصرها في:

- 1- الخطاب الرافض لإمكانية الإحاطة بكل مفردات اللغة وبتزعمه ابن فارس .
- 2- الخطاب المؤيد لإمكانية الإحاطة وبتزعمه الخليل بن أحمد .
- 3- الخطاب الذي ينفي إمكانية الإحاطة الفردية مع تأكيد إمكانيتها الجماعة وبتزعمه الإمام الشافعي .
- 4- وأخيرا خطاب الواقع اللغوي الذي يعلن عن فقدان الكثير من مفردات اللغة ودلالاتها مما يصعب عملية الإحاطة بمفردات اللغة .

- ينطلق هذا المقال من مفهوم خاص للخطاب يرى فيه عملا يتجاوز حدود اللغة إلى الممارسة ؛ فهو ليس " وعيا يتخذ من اللغة مظهره الخارجي إنه ليس لسنا وأداة تتكلمه ، وإنما هو ممارسة لها أشكالها الخاصة من الانتظام " (1) فهو من هنا يربط اللغة بالواقع ليتحولا إلى معطى واحدا ، ولعل في الإنتاج اللغوي المختلف -الذي منه المعجم -المثال الواضح على ذلك ، فالمعجم مثلا يعد منتوجا لغويا ينتجه إنسان فرد أو جماعة ليحوي جانباً من اللغة ، فهو من هنا يعد نصا ، ثم هو يؤدي وظيفته من خلال تحوله إلى واقع لغوي ، يتعامل مع الناس استعمالاً ودراسة ، وهو من خلال كل ذلك يقدم نفسه في شكل محدد خاضع لمجموعة من القوانين التي تعمل على جعله يتميز بذاته ، ويدخل في جدل مع أنماط أخرى من المعاجم ، ومن النصوص اللغوية والثقافية العامة .

والمعجم ككتاب لا يمكنه أن يخرج عن العوامل التي تتحكم في كل إنتاج بشري ، فهو يحمل فلسفته الخاصة التي تحدد وظيفته (2) كما أنه يرتبط بالسياق التاريخي وشخصية مؤلفه " فالمعجم كغيره من الإنتاج الفكري امتداد للنظريات الفكرية والمذهبية في عصر تأليفه ، وكثيرا ما تأثر اللغويون بالنظريات العلمية أو المذهبية في عصرهم وسعوا إلى تطبيق مبادئها على اللغة ، فقديما وحديثا كانت اللغة وما إليها مرتعا مفضلا لتلك النظريات " (3). والمعجم العربي لم يشذ عن هذه القاعدة ، ذلك أنه كان وليد الأجواء التاريخية التي أحاطت به ؛ فقد عرف الفكر العربي في بدايته جدلا كبيرا بين مختلف التيارات الفكرية بين الجبرية والمعتزلة ، وبين أهل النص وأهل الرأي ، وفي المجال اللغوي دار الجدل حول أصل اللغة ونشأتها ، وهل هي

توقيف من الله ؟ أم هل هي وضع من البشر ؟ وقد نتجت عن هذه القضية الأصل قضايا فرعية عديدة تمس عالم اللغة وطرق البحث فيها ، ومن المجالات التي مسها الجدل المعجم ؛ ذلك أن الفكر المعجمي العربي القديم - خاصة في بدايته الأولى - تقاسمه اتجاهان : اتجاه يرى أن اللغة هبة من الله الذي علم آدم الأسماء كلها ، وقد ارتبط هذا الاتجاه بنظرة تقديسية للغة من خلال جعل العربية أفضل اللغات.⁽⁴⁾ ونفي إمكانية الإحاطة بها ، لذلك فإن عمل العلماء يقتصر على جمع الألفاظ ووضعها في شكل رسائل قصيرة " تناولوا فيها موضوعا من الموضوعات كالإبل والوحوش ... ".⁽⁵⁾ وفي مقابل هذا الاتجاه كان هناك اتجاه آخر نظر إلى الآية نفسها نظرة مخالفة حيث دفعه فهمه لهذه الآية إلى العمل على " أن يحدد المجموع الضخم للكلمات التي وهبها الإنسان عندما منحت اللغة له...وهنا فرض منهج العد والإحصاء نفسه، ووصل الأمر ببعضهم إلى إحصاء مجموع ما منحه الإنسان الأول من ملايين الكلمات التي كان يوضح بها حاجاته والتي امتاز بها على مجموعة المخلوقات الأخرى"⁽⁶⁾

2- يقول ابن فارس : " قال بعض الفقهاء : كلام العرب لا يحيط به إلا نبي ، وهذا كلام حري أن يكون صحيحا ، ومتى بلغنا أن أحدا ممن مضى ادعى حفظ اللغة كلها . وأما الكتاب المنسوب إلى الخليل وما في خاتمته من قوله : هذا آخر كلام العرب ، فقد كان الخليل أروع وأتقى لله -جل ثناؤه ، من أن يقول ذلك . ولقد سمعت علي بن محمد بن مهرويه يقول : من كان أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فليُنظر إلى الخليل بن أحمد ، وأخبرني أبو داود سليمان بن يزيد الفامي عن المصاحفي عن النضر بن شميل قال : كنا نميل بين عون والخليل بن أحمد أيهما نقدم في الزهد والعبادة

فلا ندري أيهما نقدم ، قال : وسمعت النضر بن شميل يقول : ما رأيت أحدا أعلم بالسنة بعد ابن عون من الخليل بن أحمد . قال: وسمعت النضر يقول أكلت الدنيا بأدب الخليل وكتبه وهو في خص لا يشعر به ، قلنا : فهذا مكان الخليل من الدين ، افتراه يقدم على أن يقول : " هذا آخر كلام العرب " ؟ . ثم إن في الكتاب الموسوم به من الإخلال مالا خفاء به على علماء اللغة ومن نظر في سائر الأصناف علم صحة ما قلناه " (7)

ينطلق هذا الخطاب النافي لقدرة الإنسان على الإحاطة باللغة -إلا إذا كان نبيا أي أن قدرة النبي معطاة من الله لا مكتسبه من الإنسان - من الرواية ؛ أي النص عبر سلسلة من الرواة المنسوبة إلى علماء سابقين ، وهذا يؤكد سلطة النقل في مقابل العقل ، وسلطة السلف في مقابل الخلف ؛ ذلك أن العقل لا حضور له في هذا الخطاب إلا حضورا هامشيا ثانويا فاقدا لكل فعل إيجابي ، كما أن الخلف حضورهم في هذا الخطاب هو حضور تسليم للسلف، والانقياد لهم ، ومن هنا فلا يسمح هذا الخطاب بأي خروج عن النص/السلف، حتى ولو كان هذا الخروج في مجال اللغة ؛ لأنه يقع في الدرجة نفسها التي يقع فيها الخروج عن الدين والعقيدة ، مما يعطى اللغة بعدا مقدسا يمنع الاقتراب منها ، أو إخضاعها للبحث ، وللمناقشة ، كما أنه يلغى قدرة الإنسان وحرية في التصرف باللغة .. وفي الاحتجاج لهذا الرأي نجد صاحب الخطاب وهو ابن فارس يعتمد بعض الآليات ، والتي يمكننا تلخيصها في ما يأتي :

أ- الاعتماد على النقل في تأكيد صحة المقولة من خلال نفي وجود أي رواية تثبت أن إنسانا قد استطاع الإحاطة باللغة .

ب- وفي حال وجود رواية تخالف الإجماع فإن تجربتها هو الوسيلة الوحيدة للقضاء عليها ، والعودة إلى حال الإجماع المثالية ، والرواية الواردة هنا هي المنسوبة إلى الخليل بن أحمد في كتابه العين . وقد اتبع ابن فارس لنقضها طريقتين من النقد :

أولا : النقد الخارجي : من خلال إثبات تدين الخليل بن أحمد هذا الندين الذي ينفي مقولة إمكانية الإحاطة باللغة عنه .

ثانيا : النقد الداخلي : الذي من خلاله كشف عن الأخطاء الموجودة بكتاب العين والتي تسهم في زرع الشك في نسبة الكتاب إلى الخليل ، ومن ثمة جعل هذا الكتاب يفقد قيمته العلمية حيث سينسب إلى مجهول ، وهذا المجهول يمكن تعليق كل النقائص الممكنة به ، ومن ثمة نزع المصادقية العلمية من عمله ومنها مقولته بإمكانية الإحاطة باللغة .

وحين نتتبع هذا الخطاب ، ومنطق حركيته في عمله نجده ينطلق من مسلمات غير مؤكدة وتحويلها إلى حقائق مطلقة يبنى عليها جدله وحجابه ، وإلا ما المرتكز العلمي الذي يجعل اللغة العربية لغة مقدسة لا يمكن المس بما أو دراستها ؟ وهل هي ثابتة على صورة واحدة لا تتغير ولا تتحول ؟ أي أنها خارجه عن إطار الزمان و المكان ؟ اللذين هما الركيزتان الأساسيتان للواقع الذي لا يخضع في حركيته لتصورات البشر ، بل هو الذي يصنع هذه التصورات ، ثم إذا كان الخليل بن أحمد لم يقل بهذه المقولة أو فشل في إثباتها ، فهل يلغي هذا قدرة غيره على القول بها وإثباتها ؟

3- جاء في كتاب الفهرسة ما يأتي : " قال : الليث بن المظفر بن نصر بن سيار : كنت أسير إلى الخليل بن أحمد فقال لي يوما : لو أن إنسانا قصد وألف حروف ألف وباء وتاء وتاء على أمثلة لاستوعبت في ذلك جميع كلام

العرب ، فتهيأ له أصل لا يخرج عنه شيء منه ، قال : قلت له : وكيف يكون ذلك ؟ قال : يؤلفه على الثنائي و الثلاثي والرباعي و الخماسي ، وأنه ليس يعرف للعرب كلام أكثر منه ، قال الليث : فجعلت استقهامه ويصف لي ولا أقف على ما يصف ، فاختلقت إليه في هذا المعنى أياما ثم اعتل وحجبت ، فمازلت مشفقا عليه ، وخشيت أن يموت في علة فيبطل ما كان يشرحه لي ، فرجعت من الحج وسرت إليه ، فإذا هو قد ألف الحروف كلها على ما في صدر هذا الكتاب ، فكان يملئ عليّ ما يحفظ ، وما شك فيه يقول لي : سل عنه : فإذا صح فأتيت به ، إلى أن عملت الكتاب " (8)

هذا الخطاب يأتي على النقيض من الخطاب الأول ، دون أن يمس تناقضه مع الخطاب السابق الأسس العقائدية ، أي أنه لا يمنح للإنسان قدرة فوق قدراته الإنسانية ولا يعمل على جعله يحتل مكانة غير مكانته الموضوعية التي تمكنه منها قدراته وطاقته فهو من هنا يؤمن بحرية الإنسان في الحركة و العمل وينظر إلى اللغة على أنها ظاهرة إنسانية يمكن دراستها و الإحاطة بها وهذا الخطاب ينطلق في بناء موقفه هذا من حقائق علمية تتمثل فيما يأتي :

أ- المعرفة باللغة العربية من حيث خصائصها الصوتية (عدد الأصوات) ، والصرفية (عدد الأبنية) .

ب- المعرفة الرياضية متمثلة في نظرية الاحتمالات و الإحصاء .

وعليه فإن الجمع بين هاتين المعرفتتين يؤدي بالباحث إلى الإحاطة باللغة ومكوناتها اللفظية كلها ويضمن بذلك عدم خروج أي لفظ من دائرة الحصر ، ثم تأتي بعد ذلك عملية الفرز بين الاحتمالات الممكنة بالنظر إلى ثنائية

الإهمال و الاستعمال وهي عملية تقتضي النظر إلى الواقع اللغوي و الإحاطة به ، ذلك أن الإحاطة العقلية النظرية وحدها لا تكفي، وإن كانت تساعد على توجيه الباحث وتنبيهه إلى كل الأجزاء الممكنة داخل البناء اللغوي العام للغة التي يحاول الإحاطة بها .

4- جاء في المزهري ما يأتي " وهذا الذي نقله عن بعض الفقهاء نص عليه الإمام الشافعي رضي الله عنه -فقال في أوائل الرسالة : لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلم أن يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها ، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه ، و العلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه ، لا يعلم رجل جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء ، وإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها ... " (9) إن هذا الخطاب الثالث يحاول أن يكون وسطا بين الخطابين السابقين ، وهذا انطلاقا من مقولة الوسطية التي وسم بها الإسلام و المسلمون ، و النص كما ورد في كتاب المزهري جاء ليكشف لنا عن عيبين في الخطاب الأول يمسان بأمانة الباحث ، حيث إن ابن فارس قد ارتكب خطأين هما :

أ- عدم نسبة القول إلى صاحبه ،لأن في ذلك توثيقاً له ، وكشفا عن ملابساته .

ب- حذف جزء من النص الأصل ، بحيث تم توجيه الكلام إلى ما يخدم عقيدة ابن فارس .

أما إذا عدنا إلى هذا الخطاب فإننا نجد أنه يحاول أن يقع في الوسط بين الخطابين السابقين،فهو لا ينفي على الإنسان إمكانية الإحاطة باللغة نفيًا تاما ، كما أنه لا يمنحه القدرة الكاملة للإحاطة باللغة ، وهو على الرغم من

محاولته التوسط بين خطابين نقلي وعقلي ينحاز إلى الخطاب النقلي ، وذلك بجعل الرواية هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة اللغوية و الإحاطة باللغة من طرف الجماعة لا من طرف الأفراد كما أنه لم يتخلص من النظرة التقديسية للغة ، بل هو يؤكدها ويمنحها شرعية كبيرة حين قارن بين رواية اللغة و رواية الحديث النبوي إن هذه المقارنة تجعل من اللغة و الحديث النبوي شيئاً واحداً من حيث المكانة و الأهمية و النظرة التي ينظر الناس بها إليهما، فتصبح اللغة تحمل القداسة نفسها التي للحديث النبوي مما يوقع الإنسان الفرد في حرج حين يريد دراستها وممارسة التحليل و النقد عليها ، ذلك أن للتحليل و للنقد يد نساندها ومن ثمة يوقعان صاحبها في حرج ، ويجعلانه خارج الجماعة ، مما يجعله عرضة لكل الأحكام التي يمكن أن تصل إلى سلبه حق الحياة .

5- جاء في كتاب الصاحبى " ذهب علمائنا - أو أكثرهم- إلى أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل ، قال : ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاء شعر كثير وكلام كثير "(10)

إذا كانت الخطابات الثلاثة السابقة هي خطابات ذات طابع أيديولوجي أخرجتها اللغة من عالم الوجود بالقوة إلى عالم الوجود بالفعل ، فإن هذا الخطاب الرابع هو خطاب غير لغوي وغير أيديولوجي ، إنه خطاب الواقع . و الحقيقة التاريخية التي تثبت أن اللغة إي لغة لم تحفظ في كل جزئياتها، واستعمالاتها ، وكلماتها . وهذا الواقع يوقع الخطابات كلها في حرج ، حيث يهز يقينيتها المطلقة، ويجعلها تنزل من عليائها لتضطدم بحقائق الواقع

ومعطيّاتها ، هذا الواقع الذي سيطرح أسئلته الحادة على الخطابات السابقة كما يأتي:

أ- إذا كانت اللغة -على الرغم من قداستها - قد ضاع منها الكثير. ألا يمكن تعميم هذا الضياع على كل المقدسات دون استثناء ؟

ب- وإذا كان الإنسان يستطيع أن يحيط باللغة فهل تمكنه قدرته هذه من العثور على ما ضاع من اللغة؟

إن خطاب الواقع هنا هو خطاب الحقيقة النسبية في قدرتها المتواضعة في أخلاقها، تعيش في حدود ما هو ممكن لها لا في حدود ما تريده أو تتوهمه من الأشياء .

إننا اليوم في عالمنا العربي ما نزال نعيش صخب هذا الجدل يحاصرنا الخوف من كل مكان، الخوف من قداسة اللغة ودناسة الواقع هذه الدناسة التي لا تأخذ بعدا سلبيا، بل على العكس وإنما التحدي الحقيقي والأصل المنشود في غد أفضل يشمل البحث اللغوي العربي بخاصة و الفكر العربي بعامة .

الهوامش :

- 1- بين. بين : عبد السلام بنعبد العالي . دار توبقال للنشر .المغرب ط1 1996 ص.79
- 2-انظر المعجم اللغوي العربي من النشأة إلى الاكتمال : ابن خويلي الأخضر ميدني دار هومة - الجزائر 2003 ص . ص5-6 .
- 3- من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا .د.محمد رشاد الحمزاوي دار الغرب الإسلامي .بيروت ط1 1986 ص 52.
- 4- انظر : ملاحظات على تطور التأليف المعجمي عند العرب ريجيس بلاشير ترجمة د- أحمد درويش ضمن كتاب الاستشراق الفرنسي و الأدب العربي دار غريب للطباعة والنشر و التوزيع -القاهرة 2004 ص 130 .
- 5- كتاب العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي. تحقيق د.مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي . دار ومكتبة الهلال . د.ط ، ود.ت م7/1 .
- 6- ملاحظات على تطور التأليف المعجمي عند العرب -مرجع سابق- ص 131.
- 7- الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها . ابن فارس . تحقيق وتقديم مصطفى الشويعى ، مؤسسة أ. بدران للطباعة و النشر - بيروت 1963. ص 47-48 .
- 8- الفهرسة : ابن النديم ، اعتنى بها وعلق عليها الشيخ إبراهيم رمضان ، توزيع دار المؤيد.الرياض ، دار المعرفة بيروت، ط2، 1997، ص ص.65-66 .

- 9- المزهر في علوم اللغة و أنواعها . السيوطي شرح وتعليق محمد جاد المولى بك . وآخرين المكتبة العصرية صيدا-بيروت . 1987 ج1/65 .
- 10- الصاحبى - مرجع سابق ص 67 .